جبران خليل جبران

ابتدع جبران لنفسه طريقة فى الكتابة اكتسب بها اعجاب الجمهور وامتلاك قلوب القراء بموضوعاته الشائقة فتحداه فى أسلوبه كثيرون من الكتاب المعاصرين ولكن شتان ما بين الثريا والثرى

وُلد جبران سنة ١٨٨٣ في بشرى من أعمال لبنان وترعرع فى شمالى لبنان تحت سمائه الحرة وفوق أنقاض العصور السالفة . ثم تتلمذ فى مدرسة الحكمة فى بيروت فتلقن فيها العربية . وهنالك بدأ قلمه السيال باظهار ما تكنه نفسه الكبيرة من أسرار البلاغة والبيان . ولم يلبث بعد خروجه من المدرسة أن هاجر الى باريس فأقام فيها أشهراً . ثم هاجر الى الولايات المتحدة فقطن بوسطن مدينة العلم زمناً اشتغل فيه بالكتابة والتصوير . ثم عاد الى باريس سنة ١٩٠٨ لينهى فيها دروسه الفنية فأقام فيها ثلاث سنوات حاز فى آخرها شهادة الامتياز من كلية الفنون الافرنسية

مبرزاً على أربعمائة من رفقه المصورين المختلفي الجنسية . وقبلت رسومه فى المعرض الأمى السنوى . وسمى عضو فى جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف فى جمعية المصورين الانكليزية . ثم عاد الى الولايات المتحدة واتخذ نيويورك مسكنا له . وهو الآن عضو فى جمعيات فنية وشعرية عديدة . وله من المؤلفات المطبوعة « نبذة فى الموسيقى » و « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » و « الاجنحة المتكسرة » و « دمعة وابتسامة » و « كتاب العواصف » و « المصطفى » و « المجنون بالانكليزية وقد عربه » و « المواكب » وله ديوان شعر طلى نفيس كله عواطف وعواصف روحية .

***

هذه كلمة صغيرة عن تاريخ جبران واليك ما كتبه بنفسه عن تصوراته وحياته الروحية : —

يوم مولدى

***

كتبت في باريس في ٦ كانون الاول سنة ١٩٠٨

فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى

فى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتنى السكينة بين أيدى هـذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

ها قد سرت خمسا وعشرين مرة حول الشمس . ولا أدرى كم مرة سار القمر حولى ، لـكننى لم أدرك بعـد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام

قد سرتُ خمساً وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والـكواكب حول الناموس الكلى الأعلى . ولـكن هو ذا نفسى تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما يُرجع الـكهوف صدى أمواج البحر . فهي كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغانى مده وجزره ولا تستطيع ادراكه

منذ خمس وعشرين سـنة خطتنى يد الزمان كلمة فى

كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وها أنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعانى : ترمز تارة الى لا شىء ، وطوراً الى أشياء كثيرة

ان التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسى فى مثل هـذا اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامى مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالى الماضية ، ثم تبـددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتى اضمحلال أناشـيد السواقي فى الأودية البعيدة الخالية

في مثل هـذا اليوم من كل سنة تجىء الأرواح التى رسمت روحى مترا كضة نحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بى مرتلة أغانى الذكرى المحزنة : ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات ، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيـدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة الى مكان آخر

فى هـذا اليوم تنتصب أمامى معانى حياتى الغابرة ،

كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملامح الآمال والأحلام والأمانى المتجعدة كملامح الشيوخ ، ثم أغمض عينى وأنظر ثانية في تلك المرآة ، فلا أرى غير وجهي ، ثم أحدق بوجهى فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة

فى الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه والذى أحببته عند ما كنت صبياً ما زلت أحبه الآن . والذى أحبه الآن سأحبه الى نهاية الحياة ، فالمحبة هى كل ما أستطيع أن أحصل عليه ، ولا يقدر أحد أن يفقدنى إياه

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة وتشبيت به سراً وعلناً . ولئن لم أسل الموت ولا نقضت له عهداً ، فانى صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندى بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركا

بانماء شوقى وحنينى . وتساهما محبتى وانعطافى

وقد أحببت الحرية فكانت محبتى تنمو بنمو معرفتى عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع ادراكى خضوعهم للاصنام المخيفة التى نحتتها الاجيال المظلمة. ونصبتها الجهالة المستمرة ؛ ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكننى كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبة الحرية ، وأشفق عليهم ، لانهم عميان يقبلون أحناك الضوارى الدامية ولا يبصرون ، ويتمصون لهاث الافاعى الخبيثة ولا يشعرون ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شىء لاننى وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت خيالا شفافاً يمر بين المنازل ، ويقف فى منعطفات الشوارع . وينادى عابرى الطريق . فلا يسمعون ولا يلتفتون

وفى الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها لكننى لم أجدها قط فى سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها

على الرمال المحيطة بقصورهم . ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هيا كلهم . ولما انفردت بطلبها سمعت نفسى تهمس فى أذنىَّ قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا فى أعماق القلب ولن تجىء اليه من محيطه . » ولما فتحت قلبى لكى أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها . لكننى لم أجدها

وقد أحببت الناس — أحببتهم كثيراً — والناس فى شرعى ثلاثة :

واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها . وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت الاول لتعاسته ، والثانى لسماحته ، والثالث لمداركه

هكذا انقضت الخمس وعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامى وليالى متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتى . مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف

واليوم . قد وقفت متذكرا ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضى حياتى

أترانى أستطيع أن أومئ اليه أمام وجه الشمس قائلا : « هذا لى » ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطا وألوانا متباينة متناسقة . فى هذه الاوراق المنثورة والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكارى وأحلامى . مثلما يدفن الزارع البذور فى بطن الارض ، ولكن الزارع الذى يخرج إلى الحقل ويلقى البذور بين ثنايا التراب يعود إلى بيته فى المساء آملا راجيا منتظراً أيام الحصاد والاستغلال

أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار

والآن ، وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فتراءى لى الماضى من وراء ضباب التنهيد والاسى ، وبان لناظرى المستقبل من وراء نقاب الماضى ، أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتى ، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعى وقع أقدامهم بين المنازل ،

وأشعر بملامس أرواحهم وتموجات أميالهم ونبضات قلوبهم أنظر . فأرى الاطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم فى وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رءوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشى العيون المبطنة بأشعة الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالاغصان ويتبسمن كالازهار وينظرن الى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبى الظهور ، متوكئين على العصى محدقين بالارض كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . أقف بجانب نافذتى وأنظر متأملا بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بمسيرها المتطايرة بدبيبها فى شوارع المدينة وأزقتها ، ثم أنظر متأملا بما وراء المدينة ، فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والاودية المنخفضة ، والاشجار النامية ، والاعشاب المتمايلة ، والازهار المعطرة ، والانهار المترنمة ، والاطيار المغردة . ثم

أنظر الى ما وراء البرية . فأرى البحر بكل ما فى أعماقه من من الغرائب والعجائب والمدافن والاسرار، وما على سطحه من الامواج المزبدة . الغضوبة . المتسارعة ، المتهاونة ، والابخرة المتصاعدة . المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملا بما وراء البحر ، فأرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس ، والاقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة ، المتنازعة ، المتولدة ، المتحولة ، المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدي ، الخاضعة لشرع كلى ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . أنظر وأتأمل بجميع هذه الاشياء من خلال بلور نافذتى فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتى بعدها من قرون . ويظهر لى كيانى ومحيطى بكل ما أخفاه وأعانه كذرة من تهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الاعماق ، سرمدى العلو ، أبدى الحدود . لكنى أشعر بكيان هذه الذرة ـ هذه النفس ـ هذه الذات التى أدعوها « أنا » . أشعر بحراكها وأسمع

ضجيجها . فهي ترفع الآن أجنحتها نحو العلاء وتمد يديها الى كل ناحية . وتمثيل مرتعشة فى مثل اليوم الذى أبنها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها ، تصرخ قائلة : « سلام أيتها الحياة . سلام أيتها اليقظة ، سلام أيتها الرؤيا ، سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض . وسلام أيها الليل المظهر بظلمك أنوار السماء ، سلام أيتها الفصول ، سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الارض ، سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس ، سلام أيها الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلة الاعمال ، سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة ، سلام أيتها الاعوام الناشرة ما أخفته الاعوام ، سلام أيتها الاجيال المصلحة ما أفسدته الاجيال ، سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال ، سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس ، وسلام لك أيها القلب ، لانك تستطيع أن تهذ بالسلام وأنت مغمور بالدموع ، وسلام لك أيتها الشفاه ، لانك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة »

بالامس

كان لى بالأمس قلب فقضى ... وأراح الناس منه واستراح
ذاك عهد من حياتي قد مضى ... بين تشبيب وشكوى ونواح
انما الحب كنجم فى الفضا ... نوره يُمحى بأنوار الصباح
وسرور الحب وهم لا يطولْ ... وجمال الحب ظل لا يقيمْ
وعهود الحب أحلام تزول ... عندما يستيقظ العقل السليم

* * *

كم سهرتُ الليل والشوق معى
ساهر أرقبه كي لا أنام
وخيال الوجد يحمى مضجعى
قائلا « لا تدن : فالنوم حرام »
وسقامى هامس في مسمعى
«من يريد الوصل لا يشكو السقام»
تلك أيام تقضت ، فابشرى
يا عيونى ، بلقا طيف الكرى

واحذري يا نفس . ألاّ تذكرى
ذلك العهد وما فيه جرى

* * *

كنتُ ان هبّت نسيمات السحر أتنوى راقصاً من مرحى
واذا ما سكب الغيم المطر خلته الراحَ فملى قدحى
واذا البدر على الافق ظهر وهي قربى صحتُ «هلا يستحي»
كل هذا كان بالامس، وما كان بالامس تولى كالضباب
ومحا السلوان ماضيَّ كما تفرط الانفاس عقداً من حباب

* * *

يابنى أمي اذا جاءت سعاد تسأل الفتيان عن صب كئيب
فاخبروها أن أيام البعاد اخمدت من مهجتي ذاك اللهيب
ومكانَ الجمر قد حل الرماد ومحا السلوان آثار النحيب
فاذا ما غضبت لا تغضبوا واذا ناحت فكونوا مشفقين
واذا ما ضحكت لا تعجبوا ان هذا شأن كل العاشقين

* * *

ليت شعري: هل لنا من رجوع أو معاد لحسن وألف ؟

هل لنفسي يقظة بعد الهجوع تعرفني وجه ماضيّ الخفيف ؟
هل بعيني أيلول[1] أنغام الربيع وعلى أذنيه أوراق الخريف ؟
لا ، فلا بعثٌ لقلبي أو نشور لا ، ولا بخضر عود الحملِ
ويد الحصاد لا تحي الزهور بعد أن تُبرى بحد المنجل

***

شاخت الروح بجسمي وغدت
لا ترى غير خيالات السنين
فاذا الأميال في صدري مشت
فبعكاز اصطباري تستعين
والتوت مني الامانى وانحنت
قبل أن أبلغ حدّ الاربعين
تلك حالي فاذا قالت رحيل
«ماعسى حلّ به ؟» قولوا «الجنون»
واذا قالت « أيشفى ويزول
ما به ؟» قولوا « ستشفيه المئون »

---

(١) شهر تشرين

مناجاة ارواح

استيقظى ياحبيبتى : استيقظى لان روحى تناديك من وراء الابحار الهائلة : ونفسى تمد جبينها نحوك فوق الامواج المزبدة الغضوبة . استيقظي ، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدى مستيقظا لان الشوق ينتشانى كلما أغرقنى النعاس ، والمحبة تدنينى اليك عند ما تقصينى الهواجس ، قد تركت مضجعي ياحبيبتى خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب ، لان تأوهى قد أباد السطور من صفحاته ، فأصبحت خالية بيضاء أمام عينى . استيقظى استيقظى ياحبيبتى واسمعينى .

ـ ها أنذا يا حبيبى قد سمعت نداءك من وراء الابحار وشعرت بملامس جناحيك . فانتبهت وتركت مخدعى وسرت على الاعشاب ، فتبللت قدماى وأطراف ثوبى من

ندى الليل : ها أنا واقفة تحت أغصان الجوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبي :

ـ تكلمي يا حبيبتي : ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من أودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيري ، لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً

*
* *

ـ قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي :

ـ قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي :

*
* *

ـ قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الأحلام يا حبيبتي :

— قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتموا على الفرش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتى

* * *

— قد سرت فى الأودية خيالات الأجيال الغابرة ، وحامت على الروابى أرواح الملوك والأنبياء ، فانثنت فكرتى نحو مسارح الذكرى وأرتنى عظائم الكلدانيين وفخامة الاشوريين ونبالة العرب

— قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعى الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الأمراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتنى مكاره صادوم وآثام عاموره

* * *

— قد تمايلت الأغصان يا حبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادى ورددت على مسامعى نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغانى الموصلى

— قد ارتعشت نفوس أطفال الحى وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهم واليأس ، وأراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مراً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندبا ورثاء

***

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بانفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً الى الطيران

— قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء

***

— ها قد جاء الصباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الجبل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادى وترنمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستجباً معلنة بدأ صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية ، قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعى رءوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندى ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح

— قد جاء الصباح يا حبيبتى وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكف النهار الثقيلة ، فأزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء الى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم

المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهرا الى عراك هائـل مهلك . ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوى الدواليب وعويل البخار وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوى الضعيف ويستأثر الغني المظلوم باتعاب الفقـير المسكين

*
* *

— ما أجمل الحياة ههنا ياحبيبي ، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة

— ما أقسى الحياة ههنا ياحبيبتي ، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف

ياصاحبى

ياصاحبى — أنا لست كما أظهر لديك ، وما مظاهرى
سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط
التساهل والحسنى ألتف به ليدرأ عنى تطفلك
ويحميك من إهمالى . أما الذات الخفية التى
أدعوها « أنا » فهى سر عميق غامض مستتر
وراء جدران السكون وسيبقى غامضاً مستتراً
معتصما الى الأبد

ياصاحبى — أود أن لا تصدق ماأقول وأن لا تثق بما
أفعل لان كلماتى ليست سوى صدى أفكارك
ومآتى ليست سوى رسوم آمالك

ياصاحبى — لما تقول لى « الريح تهب شرقا » أجيبك
بقولى « أى » فهي « تهب شرقا » لاننى
لاأريد أن تعلم أن أفكارى لا تسبح مع

الريح بل تهبط وتتصاعد على أمواج البحر
وأنت قاصر بطبيعة أفكارك المستسلمة الى
الأرياح عن ادراك طبيعة أفكارى المرفرفة
فوق البحار ، وأنا لا أستطيع أن أبين لك
كنه تلك الافكار ، ولو استطعت لما فعلت
لانى أوثر أن أسبح فى البحر وحدى

ياصاحبي — لما تكون فى ظهيرة نهارك أكون فى
منتصف ليلى ، ومع ذلك فأنا أحدثك من
وراء حجاب الدجى عن الشمس فى الطفل
وعن أشعتها الذهبية الراقصة فوق قمم الجبال
وعن الظل الظليل الذى يسترق خطوته فى
الاودية الخضراء . أحدثك عن هذه الامور
لانك لاتستطيع أن تسمع ألحان ظلمتى ولا
تقدر أن ترى خفقان جناحىّ بين
الكواكب . وأنا لا أريدك أن تسمع أو
ترى لانى أوثر أن أبقى مع الليل وحدى .

ياصاحبي — لما تصعد أنت الى جنتك أنحدر أنا الى جحيمى . وحتى فى جحيمى أسمعك تنادينى من وراء الهاوية الهائلة التى تفصلنا قائلا « ياصاحبي — يارفيق » فأجيبك هاتفاً « يارفيق — ياصاحبي » لاننى أضن بجحيمي من أن يقع عليه بصرك وأخشى من لهيبه أن يلتهم النور في عينيك ومن دخانه أن يسد منخريك ، أما أنا فولع بجحيمى وأوثر أن تبقى بعيداً عنه لانى أريد أن أكون فى الجحيم وحدى

ياصاحبي — أنت تعشق الحق والجمال والفضيلة . وأنا لأجلك أقول أنه يليق بالانسان أن يحب هذه الاشياء . ولكننى أضحك فى قلبي من حبك ـ وأستر عنك ضحكى لانى أفضل أن أضحك وحدى

ياصاحبي — أنت صديق وحكيم ومترو ، لا بل أنت

كامل . وأنا أحاول أن أخاطبك بحكمة وتروٍ ،
غير أنني مجنون منجذب عن العالم الذي
تقظنه أنت الى عالم غريب وبعيد ، لكنني
أستر عنك جنوني لانني أفضل أن أكون
مجنوناً وحدي

ياصاحبي — أنت لست صاحبي فكيف أجعلك أن تدرك
ذلك ؟ طريقك ليست طريقي ولكننا نسير
معاً يداً بيد

مات أهلى

مات أهلى وأنا على قيد الحياة أندب اهلى فى وحدتى وانفرادى

مات أحبائى . وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم

مات أهلى وأحبائى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عند ما كان أهلى وأحبائى جالسين على منكبى الحياة وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس

مات أهلى جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحد السيف ، وأنا فى هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للايام والايام تضحك لهم

مات أهلي أذل ميتة ، وانا ههنا أعيش في رغد وسلام، وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي

لو كنت جائعاً بين اهلي الجائعين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين لكانت الايام أخف وطأة على صدري والليالي اقل سواداً أمام عيني . لان من يشارك اهله بالاسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لانه يموت بريئاً مع الأبرياء

ولكني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل انا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة، انا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا استطيع ان افتخر بشيء حتى ولا بدموعي

وماذا عسى يقدر المنفى البعيد ان يفعل لاهله الجائعين

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه : لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحباتي يد الموت عن نفسه

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظل القبر عن جسده

ولكن ، واحرّ قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان ، وهذه هي نكبتي ، هذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً أمام نفسي وأمام اشباح الليل

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبل يديّ ثم توقفني بلا عزم ، ولا إرادة ، ولا عمل

* * *

يقولون لي — ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي أهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلا ونهاراً في أودية الارض وسهولها

نعم ، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء — نكبة

بلادى جريمة حبلت بها رؤوس الافاعى والثعابين — نكبة بلادى مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد

لو ثار قومى على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت أن الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظلال الاستسلام، ومن يعتنق الابدية والسيف فى يده كان خالداً بخلود الحق

لو اشتركت أمتى بحرب الامم وانقرضت عن بكرة أبيها فى ساحة القتال لقلت هى العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، والموت تحت أقدام العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة

ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهر بلادى صدراً وغمر التراب اهلى وأحبائى لقلت هى النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر فمن الجهالة أن نحاول ادراك أسرارها وخفاياها

ولكن لم يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين

مات أهلى على الصليب

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء

ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم

ماتوا لانهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين

ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين

ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين

ماتوا لانهم كانوا مسالمين

ماتوا جوعاً فى الارض التى تذر لبناً وعسلا

ماتوا لان الثعبان الجهنمى قد التهم كل مافي حقولهم من المواشى وما فى اهرائهم من الاقوات

ماتوا لان الافاعى أبناء الافاعى قد تنفسوا السموم فى الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الارز وعطور الورود والياسمين

* * *

مات أهلي وأهلكم ، أيها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمت منهم ؟

ان نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم

اذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟ هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

ان العاطفة التي تجعلك ، يا أخي السوري ، أن تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد ان يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حريا بنور النهار وهدوء الليل

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل مافيك من البشرية بما فوق البشرية

أغنية الليل

سكن الليل ، وفى ثوب السكون تختبي الاحلام
وسعي البدر ، وللبدر عيون ترصد الايام

فتعالى ، يا ابنة الحقل ، نزور كرمة العشاق
علنا نطفى بذياك العصير حرقة الأشواق

اسمعى البلبل ما بين الحقول يسكب الألحان
فى فضاء نفخت فيه التلول نسمة الريحان

لا تخافى ، يا فتاتى ، فالنجوم تكتم الأخبار
وضباب الليل فى تلك الكروم يحجب الأسرار

لا تخافى ، فعروس الجن فى كهفها المسحور
هجعت سكرى وكادت تختفي عن عيون الحور

ومليك الجن ان مرّ يروح والهوى يثنيه
فهو مثلى عاشق كيف يبوح بالذي يضنيه

صفحة من المواكب

والدِين فِى الناس حَقلٌ ليس يزرعهُ
غير الأُولى لهمُ فى زرعه وطرُ
من آملٍ بنعيم الخلدِ مبتشرٍ
ومن جهول يخافُ النارَ تستعرُ
فالقومُ لولا عقاب البعثِ ما عبدوا
ربًّا ولولا الثواب المرتجى كفروا
كأنما الدينُ ضرباً من متاجرهمْ
إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

***

صفحة من المواكب

ليس فى الغابات دينٌ
لا ولا الكفرُ القبيحْ
فإذا البلبلُ غنى
لم يقل هذا الصحيحْ
ان دين الناس يأتى
مثلَ ظلٍّ ويروحْ
لم يقمْ فى الارض دينٌ
بعد طه والمسيح

أعطنى الناى وغنِّ فالغنا خيرُ الصلاة
وانينُ الناى يبقى بعد أن تفنى الحياة

أيتها الارض

ما أجملك أيتها الارض وما أبهاك .

ما أتم امتثالك للنور وأنبل خضوعك للشمس .

ما أظرفك متشحة بالظـل وما أملح وجهك مقنعا بالدجى .

ما أعذب أغانى فجرك وما أهول تهاليل مسائك .

ما أ[illegible] الارض وما أسناك .

لقـد سرت فى سـهولك ، وصعدت على جبـالك ، وهبطت الى اوديتك ، وتسـلقت صخورك ، ودخلت كهوفك ، فعرفت حلمك فى السهل ، وأنفتك على الجبل ، وهدوءك فى الوادى ، وعزمك فى الصخر ، وتـكتمك فى الـكهف ، فانت أنت المنبسطة بقوتها ، المتعالية بتواضعها ، المنخفضة بعـلوها ، اللينة بصـلابتها ، الواضحة باسرارها ومكنوناتها

لقد ركبت بحارك ، وخضت أنهارك ، وتتبعت جداولك فسمعت الأبدية تتكلم بمدك وجزرك ، والدهور تترنم بين هضابك وحزونك ، والحياة تناجي الحياة فى شعبك ومنحدراتك ، فانت انت لسان الابدية وشفاهها ، واوتار الدهور واصابعها ، وفكرة الحياة وبيانها

لقد ايقظنى ربيعك وسيرنى الى غاباتك حيث تتصاعد انفاسك بخورا ، واجلسنى صيفك فى حقولك حيث يتجوهر اجهادك اثماراً ، وأوقفنى خريفك فى كرومك حيث يسيل دمك خمرا ، وقادنى شتاؤك الى مضجعك حيث يتنائر طهرك ثلجا ، فانت أنت العطرة بربيعها الجوّادة بصيفها الفياضة بخريفها ، النقية بشتائها

فى الليلة الصافية قد فتحت نوافذ نفسى وأبوابها وخرجت اليك مثقلا بمطامعى مكبلا بقيود أنانيتى فالفيتك شاخصة بالكواكب وهى تبتسم لك ، فنزعت عنى قيودى وأثقالى وعلمت أن منزل النفس فضاؤك ، ورغائبها فى رغائبك ، وسلامتها فى سلامتك وسعادتها فى الغبار الذهبى

الذى تنثره النجوم على جسدك

فى الليلة المبطنة بالغيوم ، وقد مللت غفلتى وجمودى خرجت اليك فوجدتك جبارة هائلة مسلحة بالعاصفة ، تحارب بينَ ماضيك بحاضرك ، وتصرعين قديمك بجديدك ، وتبعثرين ضئيلك بضليعك ، فعلمت ان نظام البشر نظامك ، وناموسهم ناموسك ، وسنتهم سنتك ، وان من لا يهصر بارياحه مايبس من أغصانه يموت مللا ، ومن لا يمزق بثوراته مابلى من اوراقه يفنى خمولا ، ومن لا يكفن بالنسيان ما مات من ماضيه كان هو كفنا لآتى الماضى

*
* *

ما أكرمك أيتها الارض وما أطول اناتك

ما أشد حنانك على ابنائك المنصرفين عن حقيقتهم الى أوهامهم ، الضائعين بين مابلغوا اليه وما قصروا عنه

نحن نضج وأنت تضحكين

نحن نذنب وأنت تكفرين

نحن نجدف وأنت تباركين

نحن ننجس وأنت تقدسين

نحن نهجع ولا نحلم وأنت تحلمين فى سهرك السرمدى

نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم

نحن نزرع راحاتك العظام والجماجم وأنت تستنبتينها حورا وصفصافا

نحن نستودعك الجيف وأنت تملأين بيادرنا بالاغمار ومعاصرنا بالعناقيد

نحن نصبغ وجهك بالدم وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر

نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وأنت تتناولين عناصرنا وتكونين منها الورود والزنابق

ما أوسع صبرك أيتها الارض وما أكثر انعطافك

ما أنت أيتها الارض ومن أنت ؟

اذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمى الله عند ما

سار من مشارق الاكوان الى مغاربها ، أم شرارة قذفت من موقد اللا نهاية

انواة طرحت فى حقل الاثير لتشق قشرتها بعزم لبابها وتتعالى نصبة ربانية الى مافوق الاثير ؟

أقطرة من الدم فى عروق جبار الجبابرة ، ام انت قطرة من العرق على جبينه ؟

اثمرة تلوحها الشمس ببطء ؟ اثمرة انت فى شجرة المعرفة الكلية التى تمد عروقها الى أعماق الازل وترفع غصونها الى اعماق الابد ؟ أم جوهرة انت وضعها آله الزمن فى حفنة إلاهة المسافة ؟

اطفلة انت فى حضن الفضاء ، أم عجوز ترقب الايام والليالى وقد شبعت من حكمة الليالى والايام ؟

ما أنت أيتها الارض ومن أنت ؟

انت أنا أيتها الارض ! انت بصرى وبصيرتى ، انت عاقلتى وخيالى وأحلامى ، انت جوعى وعطشى ، انت المي

وسروري ، انت غفلتي وانتباهي

انت الجمال في عينيَّ — ، والشوق في قلبي ، والخلود في روحي

انت أنا أيتها الارض فلو لم اكن لما كنت

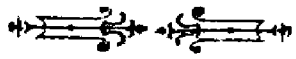

السم فى الدسم

فى صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التى تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية تولا حول الكنيسة القائمة فى وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء فى سفر فارس الرحال الفجائى الى مكان قصى لا يعلم به غير الله تاركا عروسته الصبية التى تزوج بها منذ ستة أشهر

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان فى شخصيته ما يوعز الأحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعند ما اقترن فى أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس ـ ما أسعده فتى ! فهو قد حصل

قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم أن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيباً أو صديقاً تعاظمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الاسباب الخفية التي جعلته أن يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه

إن الحياة في شمالي لبنان أقرب الى الاشتراكية منها الى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده مدفوعين بأميال فطرية وضعية . فاذا ما جاءت الأيام بحادث الى قرية ينصرف سكانها بكليتهم الى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الأيام اليهم بأمر آخر

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال .

وبينما هم على هذه الحالة واذا بالخوري اسطفان كاهن

القرية يقترب منهم منحنى الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتاً يفرك يداً بيد وبعدهنيهة قال

ـ لاتسألونى لاتسألونى . كل ما أعرفه يا أبنائى هو هذا . قرع فارس باب منزلى قبل طلوع الفجر ولما فتحت له وجدته متمسكا بمقود فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد فسألته مستغربا عما يريد فقال « جئت لأودعك يا أبتى ، فأنا مسافر الى ما وراء البحار ولن أعود الى هذه البلاد وأنا حي » ثم وضع فى يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب الىّ أن أسلمها اليه يداً بيد . فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعا قبل أن استوضح أمره . هذا كل ما أعرفه . فلا تسألونى الزيادة .

فقال أحد الواقفين

ـ لاشك أن فى الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره لأن نجيب مالك كان أعز صديق له في القرية

وقال آخر

وهل رأيت عروسته يا أبتاه ؟

فأجاب الكاهن

— قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر الى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت ادراكها ولما سألتها هزت رأسها وقالت « لا أدرى . لا أدرى . » ثم طفقت تبكى وتنتحب كالأطفال .

ولم ينته الكاهن من كلامه الا وذعر القوم حوله لطلق بندقية من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالا وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذى يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظراً أجمد الدم فى عروقهم والفكرة فى رؤوسهم — رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة — « قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية فى صدره . »

فبهت القوم كان أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت

على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد فى يمينه الرسالة التى كان قد سلمه أياها فى ذلك الصباح وقد قبض عليها بشدة كانه يريد أن يجعلها جزءاً من أصابعه فتناولها الكاهن ووضعها فى جيبه دون أن يراه أحد ثم تراجع الى الوراء لاطما وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر الى بيت والدته المسكينة التى لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتادوها الى منزلها بين حية وميتة .

* * *

ولما بلغ الخورى اسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلا الرسالة التى وجدها في يد نجيب مالك وبصوت مرتعش أخذ يقرأ —

« أخى نجيب

أنا تارك هذه القرية لان وجودي فيها يجلب التعاسة

لك ولزوجتي ولى أيضا . أنا أعلم بانك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك ، واعلم أن زوجتي سوسان طاهرة الذيل ولـكننى أعلم فى الوقت نفسه أن الحب الذى يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق ارادتـكما . فأنت لا تستطيع ازالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجارى نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً لى يانجيب مذ كنا صبيين نلعب فى الحقول وفى ساحة الـكنيسة . وأنت لم تزل صديقي أمام الله وأرجوك أن تفتكر بى فى المستقبل مثلما كنت تفتكر بى فى المـاضى ، واذا التقيت بسوسان غداً أو بعده فقل لها انى احبها وارحمها ، وقل لها أيضا انى كنت أذوب شفقة عندما كنت استيقظ فى سكينة الليل وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكى وتنتحب وتجـلد صدرها ، ليس أصعب من حياة المرأة التى تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه وسوسان المسكينة كانت فى حرب دائم ، كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولـكنها لم تـكن قادرة على قتل عواطفها ، أما أنا فسافر الى مكان بعيد ولن أعود الى هذه الديار لانى لا أريد أن أكون حجر عثرة فى

سبيل سعادتكما ، وفى الختام أرجوك ياأخى أن تبقى مخلصا لسوسان وأن تحافظ عليها حتى النهاية لانها قد ضحت كل شىء من أجلك ، فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل أن يقدم للمرأة ، ابق يانجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس والله يحفظك لاخيك

فارس الرحال

ولما انتهى الخورى اسطفان من قراءة الرسالة طواها وأعادها الى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر الى الوادى البعيد وعلى وجهه المتجعد امارات التفكر العميق

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا افكاره سرا دقيقاً هائلا محجوبا بالظواهر ملتفا بالسطحيات ، فهتف صارخا — ما أكثر دهاءك يافارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئا من دمه ، قد بعثت اليه بالسم ممزوجا بالعسل ، قد بعثت اليه بالسيف ملتفا بالحرير ، قد بعثت اليه الموت طى الرسالة ، فعند ماصوب بندقيته الى صدره كانت يدك قابضة

على يده وارادتك محيطة بارادته ... أواه ما أكثر دهاءك يافارس الرحال . . .

وعاد الخورى بولس فجلس على المقعد هازا رأسه ممشطا لحيته باصابعه مبتسما ابتسامات ذات معان أشد هولا من المأساة وبعد هنيهة تناول كتابا من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السريانى وهو يرفع عينيه بين الآونة والاخرى ليسمع صراخ النساء آتيا من قلب القرية